ثانياً : أولوية العمل على النظر

أ.د. حسن حنفي (*)

1- هل للنظر أولوية على العمل ؟

أما الدعوى النقيضة، للنظر الأولوية على العمل، فإنها دعوى تظهر فى لحظات تاريخية معينة عندما يستحيل العمل ثم يأتى النظر تعويضا عن هذا العجز، وتفريغاً للطاقة فى ميدان آخر أكثر أمنا. عندما تنسد طرق العمل لا تجد الطاقة أمامها إلا أن تظهر فى النظر كطريق فرعى حتى ينزاح السد، وتعود الطاقة إلى مسارها الطبيعى فى العالم من خلال الفعل الإنسانى.

فى الحضارة الإسلامية صحيح أن أول ما نزل من القرآن ﴿ٱقْرَأْ﴾، ولكن القراءة لا تعنى التعرف على الخطوط، قراءة المكتوب. فقد كان جبريل يعلم أن الرسول أمى لا يقرأ ولا يكتب. إنما القراءة هى التعرف على أفعال الله فى الطبيعة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾. والعلم فعل التعليم ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾. والنظر فى القرآن ليس مجرد تأمل ومعرفة نظرية بل هو إبصار ونظر بالعين. ليس فكراً مجرداً بل هو إعمال للحس، نظر للطبيعة والناس. وهو بداية السلوك والتوجيه فى العالم، وليس التأمل النظرى الخالص. النظر هو الإبصار ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، والنظر فى الطبيعة أيضاً للاعتبار ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا﴾، والنظر إلى الحيوان ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾،

(*) أستاذ الفلسفة المتفرغ بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة.

والله أيضاً ينظر كيف يعمل الناس ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. فالنظر علم. والله عالم، والإنسان عالم. وهو أيضا نظر فى الآثار كعظة وعبرة، تنظر النفس ماذا قدمت ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. والنظر إلى سنن المجتمع والتاريخ ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. وهو أيضاً انتظار كما أوّل المعتزلة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ أى منتظرة الثواب أو العقاب، وذلك مثل انتظار الساعة وانتظار النعيم وانتظار العذاب. وهو نفس الاشتقاق ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧﴾ [1].

ودعوة القرآن إلى طلب البرهان ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١١١﴾، إنما هو تحدى لاستحالة وجود البرهان على الكذب والبهتان. وعندما يدعو القرآن إلى التعقل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وإلى التفكر ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فإن القصد هو الاعتبار والعظة أى دلالة الواقع للاستفادة به فى الحياة العملية وليس تشييد بناء نظرى خالص كبديل عن الواقع. المرة الواحدة الذى بها فعل "فكر" يَقرن بالقرار وبالفعل ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾، والباقى كله "التفكر"، أى التدبر فى آيات الله فى الكون وهى أغلب الاستعمالات ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [2]. والتفكر فى خلق السموات والأرض ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. والتفكير فى الناس ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾. والتفكير فى النفس ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾. والتفكر فرادى وجماعة ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾. وقد يكون التفكر فى التاريخ وأحوال الأمم والشعوب بعد سماع قصص الأنبياء ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. فلا يوجد تفكير نظرى. إنما التفكير تفكير فى شيء.

---

(1) ورد لفظ "نظر" ومشتقاته فى القرآن (129) مرة أكثرها بمعنى الإبصار.

(2) ورد لفظ "فكر" ومشتقاته فى القرآن (28) مرة غالبها بمعنى التفكر فى الآيات.

وقد ورد لفظ "العقل" فى القرآن أكثر الاستعمالات فى صيغة استفهام استنكارى ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وفى المضارع أكثر من الماضى، كحقيقة ثابتة أبدية وليست كحقيقة زمانية ماضية. وبالإضافة إلى الصيغة الاستفهامية الاستنكارية هناك صيغة التمنى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، والصيغة الشرطية ﴿إن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1]. والأهم هو الموضوع الذى يفكر فيه العقل. يأتى كلام الله أولاً ثم الآخرة والطبيعة ثم الأحداث التاريخية والمجتمع، ثم الأفعال والأمثال والوصية. ويتطلب العقل الفعل وعدم أمر الناس بالبر دون فعل ذلك ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. والعقل النظرى هو الذى يوجه العقل العملى ويمنع من الضلال ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾. وهو الذى يمنع من الهلاك يوم القيامة ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[2].

وإذا صح ما يرويه الصوفية من أن "أول ما خلق الله خلق العقل فقال له أقبل فأقبل، أدبر فأدبر، وعزتى وجلالى ما خلقت إلىَّ أعز منك" فإن العقل هنا هو العقل العملى، العقل الإرادى الذى يطيع. وطلب الحديث عدم التفكير فى ذات الله والتفكر فى آثاره ومخلوقاته إنما هى دعوة إلى التفكير فى الطبيعة من أجل اكتشاف قوانينها والسيطرة عليها من أجل إعمارها، والتوجه إلى ما هو أنفع وأكثر يقينا. فخبر الواحد يعطى معرفة ظنية ولكنه يؤسس عملاً يقينياً.

والفكر تفكر أى فكر منعكس على الذات، تأمل وتدبر. الفكر تفكير فى النفس وهو التفكر. وهو أيضاً تفكر فى الطبيعة والكون[3].

---

(1) ورد لفظ "عقل" فى القرآن (49) مرة، 29 منها استفهام استنكارى، والماضى ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مرة واحدة.

(2) كلام الله (10)، الآخرة، الطبيعة (3)، حوادث، مجتمع (2)، أفعال، أمثال، وصية (1).

(3) استعمل لفظ "فكر" فى الحديث (10) مرات.

وقد ورد لفظ "عقل" فى الحديث بمعناه الاشتقاقى الحسى عقل البعير أى ربطه. فالعقل رباط وعلاقة وليس عقلا بلا رباط يهيم فى أى واد. هو عقل موجه نحو غاية. وفى غياب العقل يكون البله والجنون والأسر. والصبية والحيوانات لا تعقل. والنساء ناقصات عقل طبقاً للرواية المشهورة "ناقصات عقل ودين" وتمرد عائشة عليه بأنها أعقل النساء. والعقل للكلمات وللكتب أى للوحى المقروء أو المدون. ويفهم بالعقل والقلب. والعقل للشعائر والعبادات لفهم دلالاتها ومقاصدها. وأفضل إنسان ما اجتمع فيه العقل والنسك[1].

وهو ما اتضح أيضاً فى علم أصول الدين عندما جعل المتكلمون موضوع العلم ليس الذات الإلهية بل الطبيعة والنظر فى ظواهرها ومكوناتها وجواهرها، وحركاتها وعللها. وبعد ذلك تأتى الأدلة على وجود الله. فالنظر فى الطبيعة سابق على النظر فى الله، والبحث فى المحسوس سابق على البحث فى المعقول. ومشاهدة المرئى سابق على اللامرئى الذى لا يعرف إلا عن طريق قياس الغائب على الشاهد. بل إن نظرية الذات والصفات والأفعال، لب النسق الأشعرى، إنما تقوم على قياس الغائب على الشاهد، قياس الذات الإلهية على الذات الإنسانية، فى الإنسان حقيقة وفى الله مجازاً. فالإنسان عالم قادر حى سميع بصير متكلم مريد بالحقيقة والله كذلك بالمجاز كما قال ابن الأيادى اللغوى قديماً وكما يروى الأشعرى فى "مقالات الإسلاميين". والنبوة فعل فى التاريخ وحركة فيه، وتحقق لحقائقها فى توالى الأزمان. ليست النبوة فقط معرفة نظرية بل تحقق عملى وحركة تاريخية تساعد على تقدم الشعوب. والمعاد ليس مجرد إيمان بالبعث والنشور بل هو استعداد له بالعمل الصالح. والإيمان والعمل والإمامة كل ذلك يشير إلى تحقق الوحى فى التاريخ، فى الفرد والجماعة، فى المواطن والدولة.

وفى أصول الفقه، وبالرغم مما يبدو على الأدلة الشرعية الأربعة، الكتاب،

(1) ورد لفظ "عقل" فى الحديث حوالى (150) مرة، نصفها للبعير وبعضها للنساء والصبيان والمجانين.

والسنة والإجماع والقياس من طابع استدلالى إلا أن الكتاب نشأ فى المكان والزمان، فى "أسباب النزول" و"الناسخ المنسوخ". الواقع يسأل والوحى يجيب[1]. والسنة أيضاً التحقق النموذجى الأول للوحى فى الواقع، وللشريعة فى المجتمع، وللنبوة فى الدولة. والإجماع أمة فى التاريخ، وشعوب فى الزمان والمكان. لكل إجماعه طبقاً لظروف العصر دون إلزام اللاحق بالسابق. والاجتهاد بالرغم مما يبدو عليه من طابع استدلالى، استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها اليقينية إلا أنه يقوم على التعليل، تعليل الأفعال ومعرفة مكوناتها وعللها. والأشكال الحرة للقياس مثل الاستحسان والاستصلاح والاستصحاب إنما تعتمد على المصالح المرسلة فى العالم خارج العقل تحقيقاً لمنافع الناس.

وعرض له الحكماء أيضاً فى الأخلاق التأملية مثل ابن سينا ومسكويه. وهى فى الحقيقة أخلاق نظرية طبقاً لقسمة قوى النفس إلى ثلاث: القوة الشهوية وفضيلتها العفة، والقوة الغضبية وفضيلتها الشجاعة، والقوة العقلية وفضيلتها الحكمة. ومن التوازن بين هذه القوى تنشأ فضيلة رابعة هى العدالة. وأعلاها الحكمة. وبصرف النظر عن مصدر هذه القسمة، أفلاطون أو غيره إلا أنها عرضت على العقل فقبلها، والعقل أساس النقل. وهو القاسم المشترك بين القرآن واليونان، بين الشريعة والحكمة، بين الدين والفلسفة. فى الظاهر تبدو الأخلاق نظرية تأملية. وفى الحقيقة هى أخلاق عملية تبدأ من النفس كى تنتهى إلى تقوى القلب.

وبالرغم من أن المدينة الفاضلة عند الفارابى يتربع على قمتها الملك الفيلسوف والنبى والإمام ويقبع فى قاعدتها العمال والفلاحون والصيادون، وما بينهما الجند والعلماء إلا أن ذلك نوع من تقسيم العمل، والتدرج فى السلطة. الكل عمل سواء من يعمل بعقله أو من يعمل بيده.

---

(1) انظر دراستنا: الوحى والواقع، دراسة فى أسباب النزول، هموم الفكر والوطن جـ 1 التراث والعصر والحداثة، دار قباء، القاهرة 1998 / ص 17 - 56.

إن المعرفة الإشراقية عند الحكماء أو النور الذى يقذفه الله تعالى فى القلب عند الصوفية ليست معرفة نظرية خالصة بل هى نتيجة لأعمال القلوب، وتصفية النفس. فالعمل يسبق النظر. ومن أراد أن يعرف مثل معرفتنا فليجرب مثل تجربتنا كما قال الغزالى فى "المنقذ من الضلال".

وفى العلوم النقلية الخمسة، القرآن والحديث والتفسير والسيرة والفقه، إثنان منها عمليان، السيرة والفقه، وثلاثة منها نظرية، القرآن والحديث والتفسير. وهى نظرية فى الظاهر عملية فى الباطن. فالقرآن رسالة عملية للفعل والتحقق وحمل الأمانة وأداء الرسالة. وقد تم جمعه وترتيبه بفعل البشر. والحديث تفصيلات وإيضاحات عملية للقرآن. جمعه الرواة. ومن شروط الرواية تطابق النظر مع العمل عند الراوى. والتفسير لا يهدف فقط إلى إعطاء مزيد من المعلومات التاريخية أو اللغوية أو التشريعية عن القرآن بل يهدف إلى توجيه الأمة وإصلاحها كما هو الحال فى تفسير "المنار" لرشيد رضا، و"ترجمان القرآن" لأبى الأعلى المودودى، و "فى ظلال القرآن" لسيد قطب.

والعلوم العقلية الرياضية والطبيعية الخالصة تبدو فى الظاهر أبنية معرفية وهى فى الأصل علوم عملية. فالحساب إنما نشأ لضبط المواريث، والهندسة لبناء المساجد، والفلك لمعرفة مواقيت الصلاة والحج والاهتداء بالنجوم فى الأسفار. ونشأ الطب لمعالجة جرحى الفتوحات، والكيمياء لصناعة الأدوية، والطبيعة لصناعة السلاح.

وفى الحضارة اليونانية، لم يضع فيثاغورث فقط أسس علم الحساب بل كان صاحب نحلة صوفية عملية تقوم على التطهير. ونظرية المثل عند أفلاطون تبدو فى الظاهر نموذجاً لأولوية المعرفة على الوجود مع أنها استقراء للكليات من الجزئيات طبقاً للجدل الصاعد كما هو الحال فى الفن المصرى القديم الذى نقله أفلاطون إلى نظرية المعرفة وعلاقتها بالوجود.

بل إن المنطق الذى يعتبر خالدة أرسطو وأعظم ما عبر عن عبقرية اليونان إنما هو تجريد لممارسات السوفسطائيين وتنظير لجدل سقراط معهم،

وتحليل لأشكال القول دون مضمونه. وهو مرتبط أشد الارتباط بخصائص اللغة اليونانية كما لاحظ المسلمين منذ الشافعى فى "الرسالة" حتى ابن تيمية فى "الرد على المنطقيين" و "نقض المنطق".

ولا فرق بين الطبيعيات والإلهيات. فهما علم واحد يتجاذبه جدل السلب والإيجاب. المقولات واحدة، الحركة والسكون، الجوهر والعرض، الصورة والمادة، القوة والفعل، مرة إثباتاً للطبيعة ونفياً لما بعد الطبيعة فتنشأ الطبيعيات، ومرة نفيًا للطبيعة وإثباتاً لما بعد الطبيعة فتنشأ الإلهيات.

وترجع أولوية النظر على العمل إلى نزعة معرفية إشراقية صوفية خالصة بدأها أفلوطين عندما اعتبر أن الفعل ضعف فى التأمل، يفيض عن الواحد بفعل التأمل وليس بفعل الخلق. وربما كان ذلك رد فعل على المسيحية ووقوعها فى التشبيه، اللّٰه المشخص والخلق بالفعل. وربما كان أثرًا من آثار الغنوصية الشرقية.

واستمر فى هذه الدعوة أوغسطين باحثاً عن الحقيقة سواء فى حواراته الفلسفية أو فى تنظيره للعقائد المسيحية. وأوغسطين بعد تحوله إلى المسيحية كان يعرف الحقيقة مسبقاً، ثم استخدم ثقافته الأدبية والفلسفية لتبريرها. كان هدفه عملياً وليس نظرياً، الدفاع عن المسيحية ضد الشكاك والمانويين والدوناتيين والوثنيين وكل خصوم الإمبراطورية الرومانية. فقد كان مفكر السلطان.

واستمر هذا التيار الإشرقى الأفلاطونى طوال العصر الوسيط المتقدم عند القديس بونافنتورا فى "طريق الروح إلى اللّٰه". وتحول إلى نزعة صوفية خالصة تبدأ بمجاهدة النفس وتصفية القلب. فالعمل شرط النظر. وتحول إلى شعار "الإيمان باحثاً عن العقل" عند القديس أنسيلم، الإيمان أولاً ثم البرهان ثانياً، مما يقتضى أيضا تصفية القلب قبل صفاء الذهن[1].

(1) انظر ترجماتنا لمحاورة "المعلم" لأوغسطين و "الإيمان باحثاً عن العقل" لتوما الإكوينى و"الوجود والماهية" لتوما الإكوينى فى "نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1968. انظر أيضاً: مقدمة فى علم الاستغراب، الدار الفنية، القاهرة 1990، ص 235-245.

ثم بدأ عصر الإحياء فى القرن الرابع عشر، إحياء الآداب القديمة، تخلصاً من الفلسفة المدرسية والعقائد المسيحية وعودا إلى الأساطير اليونانية وعظمة الإنسان. لم يكن نظرية فى المعرفة بقدر ما كان نهضة حضارية جديدة لإنهاء العصر الوسيط وبداية فجر العصور الحديثة.

وكان الإصلاح الدينى فى القرن الخامس عشر أيضاً ليس فقط نقداً للعقائد "الكاثوليكية" بل احتجاجاً دينياً على القديم وسلطة التراث والتوسط بين الإنسان والله، واضعاً بدائل مضادة، الكتاب وحده، حرية التفسير، والكتاب المقدس باللغة الوطنية، وحرية المسيحى، والعلاقة المباشرة بين الإنسان والله، والبساطة فى بناء الكنائس دون بقايا الوثنية الرومانية القديمة. كانت البروتستانتية مرحلة فى مسار التاريخ، وتحولا فعليا فى الوعى الأوروبى.

وأخيراً جاء عصر النهضة فى القرن السادس عشر ليغير ليس فقط مصدر المعرفة، من القديم إلى الجديد، ومن بطليموس إلى كبلر وجاليليو ثم إلى نيوتن، ومن النقل إلى العقل، ومن النفس إلى البدن بل ليغير مسار التوجه الحضارى العملى من العود إلى الماضى إلى التوجه نحو المستقبل بعد أن كسب المحدثون المعركة ضد القدماء فى الفكر والأدب والفن والعلم وفى كل مظاهر النشاط الإنسانى[1].

وفى بداية العصور الحديثة أسس الوعى الأوروبى مشروعه المعرفى فى "الكوجيتو" الديكارتى "أنا أفكر فأنا إذن موجود". وبدأ الاعتزاز بالمعرفة الجديدة و"العلم الجديد"، و"العلوم الجديدة" و"الأورجانون الجديد"، والتحقق من صدق هذه المعارف باتفاقها مع العقل ومع الطبيعة. والحقيقة أن هذا المشروع المعرفى الضخم إنما كان الهدف منه السيطرة على الطبيعة وتأسيس المجتمع المدنى من أجل السيطرة على العالم. فقد واكب ما سمى بالكشوف الجغرافية منذ أواخر

(1) انظر: مقدمة فى علم الاستغراب، الدار الفنية، القاهرة 1990، ص 235-245.

القرن الخامس عشر بعد سقوط غرناطة ونهاية فترة الحكم الإسلامى فى المغرب مع بنى الأحمر وبدايته فى المشرق مع محمد الفاتح. لم يكن مشروعاً نظرياً خالصاً بل كان وراء الإلتفاف حول القارات من البحار والمحيطات بعد أن فشل الدخول إلى القلب عن طريق البحر الأبيض المتوسط كبحيرة شبه مغلقة. وتم الالتفاف حول نصف الكرة الغربية من الشرق من الساحل الأطلنطى ثم الاندفاع نحو الغرب حتى الساحل الغربى على المحيط الهادى. ثم تم الاندفاع جنوباً حول أفريقيا ثم شرقاً إلى جنوب شرق آسيا ومن ثم الاستيلاء على العالم القديم كله فى أفريقيا وآسيا. العقل المطلق والسيطرة المطلقة صنوان. والعقل الشامل والحكم الشامل قرينان. وكان ذلك كله لخدمة التجارة عبر البحار فى العصر التجارى ما قبل المرحلة الرأسمالية[1].

ثم تحول العقل من أداة معرفية ومنهج للكشف إلى عقل اجتماعى يفجر الأنظمة السياسية اللاعقلية مثل الأنظمة الكنسية والملكية. فقامت الثورة الفرنسية بعد أن تحول العقل إلى تنوير، والتنوير إلى ثورة. واكب العقل الملكيات، وواكبت الثورة الجمهوريات، وكما عرض ماركوز فى "العقل والثورة". ووضع العقل مُثُل التنوير، الحرية والإخاء والمساواة والعدالة الاجتماعية والطبيعة والتقدم، أفضل ما أخرج الوعى الأوروبى للإنسانية.

وكما امتد العقل من الإنسان إلى المجتمع امتد مرة ثانية من المجتمع إلى التاريخ وتحول إلى عقل تاريخى مكتشفا قانون التاريخ ومسار التقدم. وأصبح لكل شىء عند هيجل تاريخ، الفلسفة والدين والفن والجمال. وأصبح تاريخ العالم هو قضاء العالم. فيه يتحقق كل شىء، ويصدر الحكم على كل شىء[2].

ثم جاء القرن العشرين ليكمل المشروع المعرفى الغربى فى الظاهريات.

---

(1) انظر دراستنا: استراتيجية الاستعمار والتحرير، حوار الأجيال، دار قباء، القاهرة 1998، ص 211-228.

(2) هى عبارة هيجل الشهيرة: Weltgeschichte ist Weltgericht

والظاهريات فى تأويل آخر نزعة إشراقية تطهيرية. فالقاعدة الأولى "الرد" أو "التوقف عن الحكم" ἐποχή أو إخراج الواقع المادى خارج دائرة الانتباه هى إبعاد للعالم وزهد فيه حتى يظهر عالم الماهيات وينكشف فى النفس. فالحقيقة كشف ἀλέτεια كما يقول تلميذه هيدجر مطبقاً منهج الأستاذ. والوجود إنارة. كما أن هوسرل فى أواخر حياته، فى المرحلة الثالثة من فلسفته منذ "التجربة والحكم" عاد إلى العالم تأكيداً على شعار الفينومينولوجيا، "العود إلى الأشياء ذاتها"، والبحث عنها فى التجارب السابقة على الحمل المنطقى. كما أن المخطوطات التى تركها والمصنفة تحت حرف k تعطى وجهة نظر أخلاقية دينية صوفية للعالم، ونظرة إيمانية مسيحية قلبية مما دفع عديد من الأنصار إلى تأسيس فينومينولوجيا الدين[1].

وظهرت دعوات عنصرية فى الغرب تدعى أن الغرب وحده هو القادر على التنظير، والبحث المعرفى الخالص دون أدنى اهتمام عملى مصلحى نفعى. البحث عن الحقيقة المجردة مثل النقطة فى الهندسة التى لا طول ولا عرض ولا عمق لها. وهى فى نفس الوقت أساس الهندسة.

جعل ماكس فيبر التنظير Rationalization خاصية فريدة فى الوعى الأوروبى بعد أن درس تاريخ الأديان واكتشف الطابع العملى لديانات الشرق. ومن ثم فالماركسية بنقدها النظرى نزعة غربية على الفلسفة الغربية. والبحث عن الأنماط المثالية Ideal Types هو البحث فيما يتحكم فى العالم. النظر سلطة، والعمل ضعف. والحقيقة أن ماكس فيبر يريد السلطة أى يريد العمل عن طريق النظر كعمل غير مباشر وليس عن طريق العمل المباشر أى الممارسة الفعلية.

---

(1) انظر رسالتنا:

L'Exégèse de la Phénoménologie, L'etat actuel de la méthode phénoménologique et son application au phénomène religieux, Paris 1966, Dar al-Fikr al-Arabi, Le Caire 1977, pp.430-458.

وسار فى نفس التيار هوسرل مؤسس الفينومينولوجيا المعاصرة عندما جعل التنظير Theoretization صفة خاصة فى الوعى الأوروبى، البحث عن الحقيقة المجردة، وبالنظر المجرد عن مثال أفلاطون والماهية الخالصة مع أن مثال أفلاطون هو الخير، وهى مقولة عملية. لذلك اعتبر أفلاطون مؤسس الفلسفة وليس سقراط لأنه شابته النزعة الأخلاقية. واعتبر سقراط أقرب إلى الشرق منه إلى الغرب. فالشرق أخلاقى عملى صوفى دينى فى حين أن الغرب معرفى نظرى عقلى "علمانى".

وقد تزدهر الدراسات الصورية الخالصة فى المنطق والرياضة فى النظم الشمولية نظرا لصعوبة التعرض للواقع الاجتماعى والسياسى خوفا من الاضطهاد. فآثر العقل الاتجاه نحو العلوم الصورية الخالصة كما كان الحال فى بولندا إبان الحكم الشيوعى. فالنظر هروب من العمل وتعويض عنه. كما ازدهرت الرياضيات فى أواسط آسيا بعد أن توقفت الفتوحات وضعفت الخلافة، ولم يعد ينشغل الناس بهموم الدنيا. ولم يعد أمامهم إلا أمور الآخرة، النظريات الخالصة فى العلوم أو تمنى الفوز والنجاة فى التصوف أو "الحكمة المتعالية" و"مشاهد الربوبية" كما هو الحال عند صدر الدين الشيرازى.

والآن غابت فلسفات العقل وفلسفات الفعل معاً ولم يعد الوعى الأوروبى يعطى شيئاً. فبعد تحطيم العقل وسيادة اللامعقول، ظهرت التفكيكية لتقضى على ما تبقى من وظيفة للعقل وفككته وقضت على التمركز حول العقل Logocentricity وكل ما أبدعه العقل من قانون ونظام. وتأتى ما بعد الحداثة أيضاً لتقضى على كل شىء، العقل والفعل والبداية من الصفر بعد أن تنبأ نيتشه بعصر العدمية الشاملة.

ويبدأ الفعل من جديد خارج الوعى الأوروبى فى حركات التحرر الوطنى وفى الصحوة الإسلامية وفى حركات المقاومة لما تبقى من احتلال استيطانى فى فلسطين وجنوب لبنان، بعد انتهاء النظام العنصرى من جنوب أفريقيا الذى فى نفس العام قسمت فيه فلسطين 1948، بعد تقسيم الهند فى 1947 واحتلال كشمير وما زالت محتلة حتى الآن.

ربما انتهى العقل والفعل من الغرب، وبدأ الفعل فى الشرق قبل أن يزدهر العقل تأكيداً على الكوجيتو العملى فى الشرق فى مقابل الكوجيتو النظرى فى الغرب. وإذا كان المشروع الغربى قد بدأ بالعقل والسيطرة فإن المشروع الشرقى قد بدأ بالفعل والتحرر. لذلك يشتد عليه الآن الحصار والغزو والتهديد والتهميش حتى تظل السيطرة للغرب باسم ثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصالات، وصراع الحضارات ونهاية التاريخ.

فهل يعى العرب فى أى مرحلة من التاريخ نحن نعيش؟

2 - أولوية العمل على النظر :

هو اختيار رئيسى فى كل حضارة. وهو الاختيار وراء قيامها وانتشارها قبل أن تهزم وتتوقف، فيتحول الهم العملى إلى هم نظرى. هو الاختيار الذى يبنى الدول ويقيم العمران كما حدث فى عصر الفتوحات الإسلامية الأولى[1]. لذلك تظهر أمور المعاد النظرية فى لحظات الضيق والعجز كما ظهرت فى تاريخ بنى إسرائيل أثناء الأسر البابلى، وفى المسيحية أثناء سيطرة اليهود والرومان فى فلسطين، وعند الصوفية عندما استحالت المقاومة الفعلية بعد استشهاد أئمة آل البيت وسيطرة آل عثمان. وفى لحظات الخلاص تعود هذه الأخرويات، من الخيال إلى الواقع، ومن عالم التمنى إلى عالم الفعل، وتحرك الناس نحو الخلاص القريب كما هو الحال فى المهدية والمشيانية ولدى فرقة الأنابابتست Anabaptism ولدى الحركات الألفية Millenarianism التى تعتقد بظهور المخلص كل ألف عام مرة والتى كان يتنسب إليها نيوتن.

وفى اللغة العربية يتشابه لفظا "علم" و "عمل". يتكونان من نفس الحروف ع، ل، م. ومعهما لفظ ثالث "عالم" أى الكون مع إضافة أ ممدودة بعد العين دلالة

(1) يُروى أن إبراهيم باشا وهو فى الشام أرسل لوالده محمد على كتاباً فى التاريخ وجده هناك كى يقرأه ويستفيد منه. فأرسل إليه محمد على قائلاً: أنت تقرأ التاريخ، أما أنا فأصنع التاريخ.

على الأفق والاتساع. وبتأويل من نوع ابن عربى أو هيدجر، العلم والعمل والعالم أبعاد ثلاثة لحقيقة واحدة: النظر، والعمل، وميدان التحقق.

وقد ورد لفظ العمل فى القرآن مئات المرات. ومن حيث الاشتقاق ذكر العمل فعلاً أكثر منه اسماً مما يدل على أن العمل فعل[1]. والمخاطب الجمع أكثر الصيغ للدلالة على الخطاب[2]. وأكثر الأزمنة المضارع مما يدل على أن الفعل حقيقة مستمرة[3]. وفى الاسم، الجمع أكثر من المفرد مما يشير إلى العمل الجماعى[4]. والإضافة إلى الضمير، خاصة ضمير الجمع أكثر من غير المضاف. وكذلك الأمر فى اسم الفاعل[5].

ومن حيث المضمون يدفع القرآن الكريم نحو العمل ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. وقد ورد لفظ "العمل" فى القرآن مئات المرات ليفيد ارتباط الإيمان بالعمل الصالح ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وأن فوز الإنسان في الآخرة بالعمل الصالح ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وأن العمل الصالح له قيمته فى ذاته بصرف النظر عن الإيمان والكفر ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾[6]. الاستحقاق قانون جزاء الأعمال ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝﴾، والإنسان مسئول عنه ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. ويتم فى وقته المحدد كالصلاة ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ

(1) اسم (71)، اسم فاعل (13).
(2) الصيغ الفعلية: تعملون (83).
(3) المضارع: يعملون (56)، يعمل (14)، نعمل (6)، أعمل (4)، تعمل (2). الماضى: عملوا (73)، عملت (5)، عملتم، علمته (1). الأمر: إعملوا (9)، إعمل (2).
(4) أعمالهم (27)، أعمالكم (9)، عمل (17)، عمله (5)، عملكم (4)، عملهم، أعمال (2)، عملى (1).
(5) عاملين (عاملين) (8)، عامل (عاملة) (5).
(6) ورد لفظ "عمل" ومشتقاته (359) مرة منها ارتباط الإيمان بالعمل الصالح (73).

فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ﴾، والعمل عمل اليد ﴿لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾. وهو عمل فى الأرض ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. وعمل فى البحر ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾. والقول والإيمان والعمل شىء واحد ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، والعمل فردى ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾؛ لأن المسئولية فردية، والجزاء فردى، والاستحقاق فردى. فالعمل عمل الفرد. الدعوة إلى العمل صريحة وواضحة فى القرآن ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾، ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾، ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾.

ويظهر فى القرآن لفظ "فعل". العمل أقرب إلى العمل فى الخارج والتأثير فى العالم، فى حين أن الفعل أقرب إلى العمل الذاتى، التعبير عن جوهر الذات ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾. وهو ما يوجد أيضاً فى اللغات الأجنبية فى التمييز بين العَمل Action، والفعل Act. وترد معظم استعمالات لفظ "فعل" فى القرآن بمعنى سلبى لتطهير الذات[1]. وهى أفعال الظالمين والسفهاء والمبطلين والكافرين والجاهلين والضالين والمجرمين والخاسرين والصاغرين والنادمين. فى حين أن الأفعال الإيجابية قليلة، أفعال المتقين والصابرين[2]. وهى أيضاً أفعال فردية، أصحابها مسئولون عنها. واللّه يفعل أيضاً بعقابهم كما فعل بعاد وثمود وأصحاب الفيل. وهى أفعال المنكر والفحش والبغضاء والكراهية والضلال والكفر والإفتراء والفساد فى الأرض والفتنة والظلم والقتل والجهل والإثم والخسران والبؤس.

والفعل أيضاً مرتبط بالقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا

(1) ورد لفظ فعل (108).
(2) الأفعال السلبية (99)، الأفعال الإيجابية (9).

تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾. وفى هذا المعنى نقد اللّٰه سلوك الشعراء ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾، وهو مرتبط أيضا بالإرادة. لذلك كان اللّٰه ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾، وكان الإنسان المتشبه باللّٰه كذلك ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾.

كما ورد لفظ "العمل" فى الحديث. وفى معظم الاستعمالات مرتبط بالعلم النافع وضرورة تطابق علم العالم مع أفعاله وأقواله، "تعلموا، تعلموا، فإذا علمتم فاعملوا". فالعلم نهاية العمل، العلم بداية والعمل نهاية، "لا تكون بالعلم عاملاً حتى تكون به عالما"[1]. العلم مقدمة والعمل نتيجة. ولا يوجد علم نظرى إلى ما لا نهاية "فإذا عرفتم منه فاعملوا". والعلم قراءة القرآن، وقراءة القرآن تؤدى إلى العمل به، "من قرأ القرآن وعمل بما فيه"، "المؤمن الذى يقرأ القرآن ويعمل به". وهو عمل فى الأرض لتعميرها وفى الدنيا تحقيقاً لرسالة الإنسان واستخلافه فى الأرض. هو العمل اليدوى المنتج "خير الكسب كسب يد". هو العمل المأجور وليس المستغل "أعطوا العامل أجره قبل أن يجف عرقه". ولا ينقص من أجره شيئا قيمة عمله "لا ينقص من أجر العامل". هو العمل فى الزمان، فى الوقت المحدد، فى الساعة واليوم والفترة والعمر. لذلك كانت العبادة فى مواقيت، الصلاة والصيام والزكاة والحج. وكان الوحى أيضاً فى مواقيت طبقاً لمراحل التاريخ، وأكملها المرحلة الأخيرة التى اكتملت فيها النبوة. وأفضل الفعل أدومه وإن قل وهو العمل الضرورى وفى نفس الوقت الاختيارى الذى يقوم على التطوع والسبق والمنافسة فى الخير. وأفضل الأعمال على ظهر الفرس: الجهاد فى سبيل اللّٰه. هو العمل طبقاً للقدرة والطاقة "اعملوا فكل ميسر لما خلق له". وهو ضد الإتكال. ولئن جمع حاطب ليل وباع بالنهار خير من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه. ولم يشأ

(1) ورد لفظ "عمل" فى الحديث حوالى (280) مرة. أكثرها مع العمل وأجر العمل، وجزاء العمل، والكسب والقدرة.

الرسول البشارة بالجنة حتى لا يتكل الناس، "إعملوا ولا تتكلوا". والعمل سنة، إتباع وإبداع، تقليد وتجديد، تواصل وانقطاع فى التاريخ. وهو عمل يُجازى الإنسان عليه يوم القيامة طبقاً لنوعه صلاحاً أم فساداً، حسناً أم سيئاً، طبقاً للنية الصادقة ولوجه الله أم طمعاً فى مدح الناس. ومن هم بحسنة ولم يعملها كتبت له، ومن هم بسيئة ولم يعملها غفرت له "العمل بالنية" و "إنما الأعمال بالنيات".

والعلوم الإسلامية العقلية النقلية أربعة: إثنان عمليان وإثنان نظريان. العمليان علم أصول الفقه وعلوم التصوف. والنظريان علم أصول الدين وعلوم الحكمة.

فى علم أصول الفقه غاية الوحى العمل، تحويل الوحى إلى نظام للعالم. الفعل صيغة أمرية، إيجاباً أم سلباً. والمقاصد للإمتثال والتكليف. والأحكام للوجوب أو للتحريم ضرورة (الواجب والمحرم) أو اختيار (الندب والكراهة) أو طبيعة (الإباحة). ولا يجوز تكليف ما لا يطاق مع التخيير بين العزيمة والرخصة طبقاً للقدرة. وكل مسألة لا ينتج عنها أثر عملى كما يقول الشاطبى فى "الموافقات" عارية عن العلم. وتطابق عمل المفتى مع قوله شرط للإفتاء. وتحقيق المصالح العامة هو الهدف الرئيسى من العلم بصرف النظر عن طرق الاستدلال.

والتصوف نزعة عملية تقوم على الرياضة والمجاهدة. الشريعة قبل الطريقة، والطريقة قبل الحقيقة. والمقامات جهد مبذول وعمل محصول قبل ورود الأحوال من عين الجود. المقامات مكاسب والأحوال مواهب. هو تصفية للقلب، وجلاء للمرآة قبل أن تنعكس عليها صور المعارف وحقائق العلوم. لا يعرف الله إلا ببطن جائع وبدن عار. التصوف علم وعمل، نظرية وتجربة. هناك تصوف نظرى وتصوف عملى، والعملى شرط النظرى.

وفى علم أصول الدين جعل الخوارج العمل جوهر الإيمان. ومن لا عمل له لا إيمان له. ومرتكب الكبيرة الكافر لأن عمله خرج عن إيمانه، ولا توسط بين الإثنين. وحكم الكافر هو الإقصاء من جماعة المسلمين بل وجواز قتله إن لم

يستتب. والعمل عند المعتزلة جزء مكمل للإيمان. الإيمان بلا عمل نفاق أو معصية ينافى الإخلاص والصدق. فالتوسط هنا فى صالح العمل. وهو أساس قانون الاستحقاق فى المعاد ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾. وفى الأصول الخمسة عند المعتزلة العدل جوهر التوحيد. الجوهر بلا عدل ظلم. والعدل بلا توحيد قد يؤدى إلى نسبية العدل. ومن مظاهر العدل الحرية والعقل. يثبت وجود الله بالتوحيد، ويثبت وجود الإنسان بالحرية. "أنا حر فأنا إذن موجود". فالكوجيتو الإسلامى عملياً وليس نظرياً. الإنسان يتفرد عن الله بخلق الأفعال. والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أساس علاقة الحاكم بالمحكوم، مثل الدين النصيحة. فى هذه الحالة قول الحق فعل، فالساكت عن الحق شيطان أخرس. وأعظم شهادة قولة حق فى وجه إمام ظالم. بل إن من صفات الله القدرة والإرادة. ومن صفات الإنسان كى يكون حراً قادراً على الفعل الإستطاعة قبل الفعل ومع الفعل وبعد الفعل، قبل الفعل استعدادا، ومع الفعل إنجازاً، وبعد الفعل أثراً وامتداداً. ثم أتت المسائل النظرية بعد ذلك، الذات والصفات والأسماء والأفعال أو النبوة والمعاد. فعلم أصول الدين عملى النشأة وإن كان نظرى النهاية.

والحكمة قسمان: حكمة نظرية، المنطق والطبيعيات والإلهيات، وحكمة عملية: النفس والأخلاق والاجتماع والسياسة. الأخلاق علم عملى. لذلك ارتبطت بالتربية كما هو الحال عند مسكويه فى "تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق". والاجتماع وصف لأنواع المدن وتقسيم العمل والتركيب الطبقى كما هو الحال عند الفارابى. وإذا كان اليونان قد أضافوا "تدبير المنزل" أى الاقتصاد باعتباره علماً عملياً فإن الحكماء قد أضافوا السياسة أحيانا مرتبطة بالاجتماع وأحيانا بالتاريخ باعتباره تراكم سياسى وميدان تتحقق فيه قوانين السياسة [1].

ومن العلوم النقلية الخمسة: القرآن والحديث والتفسير والسيرة والفقه،

(1) انظر دراستنا: من النقل إلى الإبداع، المجلد الثالث: الإبداع، جـ3 الحكمة العملية، دار قباء، القاهرة 2002.

السيرة والفقه من العلوم العملية الخالصة. فالسيرة نموذج للاتباع وقدوة للاحتذاء. والفقه قسمان عبادات ومعاملات، وكلاهما سلوك. العبادات سلوك رأسى مع اللّه، والمعاملات سلوك أفقى مع الإنسان وفى المجتمع.

وإذا كانت الحضارة الإسلامية وسطاً بين الشرق والغرب فقد استطاعت الحضارة الشرقية الإفلات من هذا الإشكال بطابعها العملى. الشنتوية عبادة الإمبراطور فى اليابان. والكونفوشوسية تنظيم علاقات الفرد بالآخرين فى الأسرة والمجتمع فى الصين. والبوذية قدرة على السيطرة على الأهواء والانفعالات. وديانات فارس المانوية والزرادشتية نزعات أخلاقية عملية من أجل انتصار الخير على الشر، والنور على الظلمة. ولا توجد نظرية مسبقة للفن أو الصناعة فى اليابان. هناك ممارسات عملية واتحاد بالطبيعة، وإحساس بالجمال. الإبداع عملية آنية وليس تطبيقاً لنظرية مسبقة فى الجمال. لذلك غابت الأخرويات فى الديانات الشرقية. ولا يوجد فيها عالم لا مرئى يُضحى فى سبيله بالعالم المرئى. لا يوجد إلا العالم المرئى، والإنسان جزء منه ويعيش فيه. يتحد معه ويشعر به. فالطبيعة خير معلم.

وإذا كانت الحضارة الغربية قديمة ووسيطة وحديثة، ويونانية ومسيحية وحديثة معاصرة فقد بدأت الحضارة اليونانية السابقة على سقراط بنزعة عملية تحت أثر الشرق القديم فى النحلة الأورفية التى ارتبطت بالأساطير وبمقاومة الموت. والأساطير اليونانية السابقة على الفلسفة وأحد مصادرها كلها صراعات بين الآلهة والبشر أو بين الآلهة والآلهة أو بين البشر والبشر. وأوليس رمزها. فالأسطورة Mythos سابقة على الفلسفة Logos. والأسطورة صياغة خيالية لأفعال الأبطال وصراعات الشعوب.

ومنذ أن وعى سقراط أن "العلم فضيلة والجهل رذيلة" بدأت أولوية العمل على النظر. فالعلم ليس بحثا نظريا مجردا بل هو سلوك عملى. بل إن المعرفة النظرية عن ماهيات الأشياء إنما تأتى عن طريق الحوار القائم على التهكم والتوليد، والحديث مع الناس فى الأسواق، والمشاركة فى تجارب

الحياة اليومية، بالرغم من نقده للسوفسطائيين الذين لا يريدون البحث عن المعانى المجردة، ويكتفون بإثبات الحركة بالتحرك بالفعل دون أدلة نظرية أو بحث عن معانيها كما يريد سقراط.

والفلسفة عند أفلاطون هى تعلم الموت أى القدرة على الزهد فى الدنيا من أجل معرفة الحقيقة، والتحول من الدنيا إلى الآخرة طبقا لأسطورة الكهف المعروفة. فالأخلاق شرط المعرفة، والعمل أساس النظر. بل إن أفلاطون فيلسوف عملى تربوى فى "الجمهورية"، يريد تأسيس المدينة الفاضلة، والانتقال من النظر إلى العمل، ومن التأمل إلى الممارسة، ومن الكهف إلى الدولة. كان فيلسوف ورجل دولة، صاحب نظرية ومطبق لها.

و"الإرادة الخيرة" عند أرسطو، ثم بعد ذلك عند كانط توجه عملى. فهى إرادة طيبة، لأن الطبيعة خيرة كما عرض روسو فيما بعد. وقد أثرت "الأخلاق إلى نيقوماخوس" فى البشرية قدر تأثير المنطق.

وبعد نسق أرسطو، هذا الصرح الشامخ للمنطق والطبيعة، وما بعد الطبيعة تحولت الفلسفة اليونانية بعده إلى مدارس خلقية عملية كالرواقية والإبيقورية، تجعل الفلسفة أسلوب حياة حتى لو كانت على طرفى نقيض، الزهد فى الدنيا أو التكالب عليها، إيثار الآخرة على الدنيا أو إيثار الدنيا على الآخرة. فالتطور الطبيعى للفكر من النظر إلى العمل، ومن التأمل إلى الممارسة.

وفى العصور الوسطى قامت العقائد المسيحية كلها على القنوط والخلاص، سقوط آدم والخلاص بالمسيح. خرج آدم من الجنة إلى الأرض بفعل الغواية ولضعف الإرادة. وحمل الخطيئة يتوارثها أبناؤه جيلاً وراء جيل. لذلك أرسل الله المسيح ليخلصه من غواية الشيطان وما ترتب عليها من سقوط. فالمسائل النظرية عن طبيعة السيد المسيح إنما أتت بعد المسائل العملية. الخلاص بالسيد المسيح الذى أتى فداء للبشر. وقد ظهر فى نشأة المسيحية تياران فى الصلة بين النظر والعمل تيار يعقوب الحوارى كاتب رسالتين فى العهد الجديد فى آية مشهورة له "ليس المهم أن تقول إلهى إلهى

ولكن المهم من يطبق كلامه فى العمل". وتيار بولس الذى تحول إلى المسيحية بعد صعود المسيح إلى السماء وكان من كبار مضطهدى أنصاره وظهور المسيح له وهو فى طريقه إلى دمشق. وهو تيار لاهوتى فقهى نظرى نظرا لأن بولس كان حبرا يهوديا من مدرسة الجميّل المشهورة بالتأويل. حول بولس كل خصائص التوراة إلى صفات المسيح، الحق، الألوهية، الخلاص. وحول المسيحية الأخلاقية العملية عند متى ومرقص إلى مسيحية لاهوتية نظرية مثل مسيحية يوحنا. فبولس هو المسئول عن تحول المسيحية الأخلاقية العملية إلى مسيحية لاهوتية نظرية. وهو ما لاحظه ابن حزم أيضاً فى "الفصل" ثم رينان بعد ذلك فى "مصادر المسيحية"خاصة الجزء عن "بولس".

وقامت العقائد اليهودية على نفس الأساس العملى، أن الله اختار هذا الشعب ووعده بهذه الأرض والمدينة والمعبد والهيكل، وأيده بالنصر والغنم. وهو عهد إلهى مطلق، من طرف واحد، ودون مقابل من إيمان أو إخلاص أو تقوى أو طاعة للشريعة. يكفى إيمان البعض كى يتم خلاص المجموع. لذلك نقض الله عهده معهم كما نقضوا عهدهم معه. وجعل العهد لكل البشر عهداً فردياً مشروطاً بالطاعة، عهداً أخلاقياً وليس عهداً مادياً. اليهودية ليس بها عقائد نظرية. والعهد اختيار عملى. جوهرها الشريعة. وهو تطبيق عملى فى الفرد والجماعة.

وفى العصور الحديثة بالرغم مما يبدو عليها فى بداياتها عند ديكارت وبيكون من البحث المعرفى المنهجى إلا أنها بدأت أيضاً بالعمل. فعند ديكارت الإرادة أوسع نطاقاً من الذهن كما يعرض فى التأمل الرابع فى "التأملات فى الفلسفة الأولى". لذلك يخطئ الإنسان لأن العقل لا يستطيع أن يسيطر على كل مظاهر الحياة الإنسانية. يطبق العقل فى الرياضيات وفى العلوم الطبيعية. أما فى الحياة الإنسانية فالإنسان فى حاجة إلى "أخلاق مؤقتة" تسيّر أمور حياته طبقاً للعادات والأعراف والتقاليد الموروثة والحس المشترك والرأى العام. ثم رفض تلميذه اسبينوزا الأخلاق المؤقتة، الدين والسياسة. وطبق فيهما روح المنهج. فرفض الثيوقراطية، ونادى

بالديموقراطية[1]. والمعرفة عند بيكون تبدأ أيضاً بالتخلص من الأوهام الأربعة، أوهام الكهف وأوهام المسرح وأوهام السوق وأوهام القبيلة حتى يمكن تأسيس المعرفة التجريبية الصحيحة. وهو جهد عملى مثل الشك عند ديكارت الضرورى للوصول إلى اليقين.

وظهرت أولوية العمل على النظر فى الفلسفة النقدية عند كانط بالرغم من أن "نقد العقل النظرى" يأتى من حيث الترتيب قبل "نقد العقل العملى". فالمعرفة لا تدرك إلا الظاهر، أما الباطن فلا يعرف إلا بالأخلاق. لذلك صرح فى مقدمة الطبعة الثانية فى "نقد العقل النظرى": "كان لزاما على هدم المعرفة لإفساح المجال للإيمان". والإيمان تقوى باطنية، وعمل صالح، وإرادة خيرة، وأداء للواجب. ونقد كل الأدلة القبلية والبعدية على وجود الله وأنها لا تثبت شيئا سواء كانت استنباطية أو استقرائية، عقلية أو طبيعية، وأن الدليل الوحيد على وجود الله، هو القانون الخلقى أو الغائية فى النفس أو الجلال فى الطبيعة ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾. وفى رسائله بيّن أن هناك عديداً من المسائل النظرية ليس لها إلا حل عملى.

وقد أدرك الفلاسفة بعد كانط روح المذهب الكانطى وأعطوا الأولوية للعقل العملى على العقل النظرى، وللحياة على الفكر، وللإرادة على العقل. جوهر العقل النظرى عند فشته المقاومة، "الأنا تضع نفسها حين تقاوم". وعند هيجل الجدل، والجدل ليس فقط فى العقل بل فى التاريخ. وعند شلنج الوحدة أو الهوية، والهوية ليست مبدأ صورياً بل هو تطابق الروح والطبيعة. وعند شوبنهور الإرادة، والإرادة ليست مجرد فعل بل هى إرادة الحياة أو الموت. وأحدثت صورية العقل عند كانط رد فعل فى "العاصفة والاندفاع" عند الرومانسيين. وسار فى نفس الطريق الكانطيون الجدد مثل هرمان كوهين بتطبيق الفلسفة النقدية فى عالم الإرادة والعواطف.

---

(1) اسبينوزا: رسالة فى اللاهوت والسياسة، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1971.

ثم أدرك جوته جوهر القضية عندما غير أول آية فى إنجيل يوحنا "فى البدأ كانت الكلمة" إلى "فى البدأ كان الفعل" ليعبر عن روح عصر بأكمله، أولوية الفعل على التأمل، والإرادة على العقل، روح فاوست والعصر الحديث. فالإنسان شيطان. يتميز بروح التمرد والعصيان.

ثم فجّر ماركس القضية بعبارته الشهيرة فى "البيان الشيوعى"، "ليس المهم فهم العالم بل تغييره". وأصبح الفهم من سمات العقل البرجوازى الذى يريد الإبقاء على الوضع القائم. الفهم مثل الدين والفلسفة النظرية تعويض عن العجز عن العمل فى الدنيا، فتتسرب الطاقة إلى أعلى بدلا من أن تتحقق إلى الأمام. البروليتاريا هى الوريث الوحيد للأفكار. ووحدة العمال "ياعمال العالم اتحدوا" تسبق وحدة المعرفة فى "جدل الطبيعة".

وبدأت الفلسفة المعاصرة بالتحول من الماهية إلى الوجود، ومن النظر إلى العمل، ومن الفكر إلى الواقع، ومن العقل إلى الفعل. بل إنه لا يوجد فيلسوف معاصر لا يبدأ بتحطيم العقل كما يقول لوكاتش والبداية بنقيضه. أعلى نيتشه من شأن ديونيزيوس إله الخمر والحياة على أبوللو، إله العقل والحكمة. ودعا إلى إرادة القوة وخلق السوبرمان. وجعل بلوندل العقل هو أحد مظاهر التجلى الإلهى فى الإنسان وأحد تحققات الفكر فى العالم. واعتبر برجسون الفكر النظرى المجرد الذى وراء المذاهب الألمانية نقص فى الإرادة، وأن المقولات فى العقل وقوالبه كطفل يلعب بظلال الأشياء بدلاً من أن يلعب بالأشياء ذاتها، وأنها أشبه بشبك بلا رصيد. وأدرك ماكس شيلر أن عالم المثل ليس معطى جاهزاً بل هو عملية تحويل الواقع إلى مثال Ideation ، تتطلب جهداً. كما أثبت مين دى بيران وجود الأشياء عن طريق الجهد والمقاومة.

ثم ظهرت الفلسفات البرجماتية سواء تلك التى تعتمد على المثالية مثل بيرس أو التى تعتمد على المنفعة مثل جيمس أو التى تقوم على الذرائع مثل ديوى لتؤكد أهمية الفعل، وأن شيئاً واحداً يتم فعله خير من عشرة أشياء يتم التفكير فيها. وتجعل الشخصانية الفعل أحد أبعاد الوجود الإنسانى.

وعند ماكس شيلر فعل التضحية وقيمة الشخص أعلى قيمتين فى تراتب الفضائل. أما فلسفات الوجود فقد اتفقت كلها على البداية بالوجود الإنسانى، بالأنا موجود وليس بالأنا أفكر كما بين جان بول سارتر فى "تعالى الأنا موجود" ثم فى الفعل الجماعى التاريخى فى "نقد العقل الجدلى".

3 - المنزل يحترق، فمن يطفىء النار؟

وأولوية العمل على النظر أحد متطلبات الواقع العربى المعاصر. المنزل يحترق فمن يطفئ النار؟ والوجود مهدد فمن الذى يصارع من أجل البقاء؟ والمشروع الصهيونى يتحقق يوماً وراء يوم من احتلال أكثر من نصف فلسطين فى 1948 إلى ابتلاع النصف الآخر فى 1967، ومن احتلال جنوب لبنان إلى احتلال الجولان فى سوريا، ومن الهجرات الروسية إلى تأسيس إسرائيل الكبرى. فمن الذى يحمى الدار ويذب عن الديار؟ وما هو دور الفيلسوف والمفكر والمثقف؟ أيقبع فى فلسفته يعلمها صنعة لجيل قادم من الحرفيين؟ أينظر بفكره الحريق والهدم وتجريف الأراضى واغتيال الأطفال والنساء والشيوخ وتصفية المقاتلين؟ أيبقى فى ثقافته، فالثقافة شىء والعالم شىء آخر، وما شأن عالم الأذهان بعالم الأعيان؟ لذلك قال الغزالى من قبل: لو أنى أشعر بثعبان تحت الجبة فهل أسأل: ما طوله؟ ما عرضه؟ ما شكله؟ ما لونه؟ سام أم غير سام؟ أم أنى أقذفه أولا خارج الجبة ثم بعد ذلك أنظر إليه وأصفه؟ هنا يسبق العمل النظر فى مواقف الخطر، وتهديد الوجود والبقاء.

والآن يشعر الجميع بمدى الامتهان عندما نواجه الاحتلال بالبيان، والاجتياح بمؤتمر القمة، والعدوان بالشجب والإدانة. فأين الفعل فى مواجهة الفعل، والألم فى مواجهة الألم ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾؟ يسهل الكلام، ويصعب الفعل. ويعلو الصوت إذا ما صمت الفعل. هو نفاق ذاتى، وتعويض نفسى، وإبراء للذمة، وتخفيف من عذاب الضمير. لذلك أتهمنا فى ثقافتنا وتراثنا. وقيل إن العرب ظاهرة صوتية، وأن

بضاعتهم بضاعة كلام. وفى المثل "عصاية تجمعهم وعصاية تفرقهم". فى حين أن الشعر العربى خيال وكرامة، عزة ونخوة، سمو ورفعة. وفى تاريخ العرب "وامعتصماه" صراخ امرأة فى الشام ينتهك الروم حرمتها لخليفة بغداد. وفى الشعر العربى، المهلهل ابن أبى ربيعة بعد مقتل أخيه كليب "اليوم خمر، وغداً أمر". وهو طريق ما زال مفتوحاً للحكام العرب إذا ما أراد أحد منهم نصر إخوته فى فلسطين.

ونظراً لغياب الفعل، الكل يريد أن يضع الكرة فى ملعب الآخر، ويعيب عليه سكونه وصمته. يقول السوريون للمصريين والأردنيين: اقطعوا العلاقة مع إسرائيل واسحبوا السفير. ويقول المصريون والأردنيون للسوريين: افتحوا جبهة الجولان فهى ليست أقل من الجنوب اللبنانى. ويقول اليمنيون للمصريين: لما لا تفتحوا جبهة فى سيناء للتخفيف عن الفلسطينيين؟ ويقول المصريون لليمنيين: احضروا جيوشكم إلى سيناء، وتعالوا لتحرير فلسطين. ويقول العرب للأوروربيين: لماذا لا تناصرون الحق الفلسطينى ضد العدوان الصهيونى، وتقطعون عنهم المعونات، وتوقفون التجارة، ولا تجعلونها من الدول الأكثر رعاية؟ ويقول الأوروبيون للعرب: ولماذا لا تقومون بواجبكم تجاه إخوانكم فى فلسطين؟ لماذا لا تمدونهم بالمال والسلاح والدواء والغذاء؟ ولما لا تقاطعون إسرائيل تجارياً وتمنعون قدوم السياح إليكم وتوقفون خطوط الطيران؟ ويطالب العرب الأمريكيين بأخذ موقف الحَكَم العادل، والشاهد المنصف، والضغط على إسرائيل للإنسحاب من الأراضى المحتلة والعودة إلى حدود الرابع من حزيران 1967. وتقول أمريكا للعرب: ولماذا لا توقفون العنف والعمليات الانتحارية ضد إسرائيل، وتوقفون دعايتكم العدوانية ضد شعب إسرائيل؟ وتطالب روسيا أمريكا بالتدخل لصالح العدل فى المنطقة. وتطالب أمريكا روسيا بالتعقل دفاعاً عن شعب إسرائيل من الإرهاب العربى. وفى غياب أى فعل ذاتى من أى طرف بداية بالطرف العربى يتم

اجتياح الأراضى الفلسطينية وتدمير المدن والقرى، وتسوية المخيمات بالأرض. والكل يستصرخ أخيه بل عدوه. ولم يبق أمام العرب إلا استجداء العدو الأكبر، الخصم والحكم.

ونظراً لما نحن فيه من مآسى وأحزان، وإحساس بالعجز والامتهان، وشعور بالضعف والهوان فإن الحاجة إلى الفعل تبدو ملحة فى وقت يتساءل فيه الجميع: أين العرب؟ ولما تحرك الشارع العربى تنفس الجميع الصعداء. وشعر كل عاجز أنه تخلى عن عجزه بفعل الآخرين. وأصبح الشارع العربى هو المخلص من كل ذنوب أنظمة الحكم وأيديولوجيات المنظرين.

وبحثاً عن الفعل فى ميدان العجز بدأ المنظرون فى تحية الشعب الفلسطينى لأنه أخذ قضيته بيده، وأنه يحارب لأول مرة لاسترداد أرضه. فقد حارب العرب بدلاً عنه فى 1948 و 1956 و 1967. ولحق بثوراته المستمرة قبل النكبة، ثورة عز الدين القسام وما سبقتها من ثورات. فالإنتفاضتان الأولى والثانية من صنعه. أعطته الأولى السلطة الوطنية الفلسطينية. وتعطيه الثانية الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس.

ولأول مرة تختفى الحروب النظامية بين جيشين، الجيوش العربية متفرقة أو مجمعة وبين جيش الدفاع الإسرائيلى، ويحارب شعب جيشا. وتقف مقاومة شعبية أمام أعتى الجيوش وأقواها عدة وعتادا. ولأول مرة تفوق خسائر العدو خسائره فى حروب الجيوش النظامية. وتأتى العمليات الاستشهادية فى المقدمة، التوحد بين الفعل والوجود. شباب حريصون على الموت قدر حرص العدو على الحياة. فالاستشهاد الفلسطينى قمة الفعل فى وسط "التخاذل العربى" قمة العجز.

وتُحاصَر الأنظمة العربية بين المطرقة والسندان، المطرقة الأمريكية بالوعد والوعيد، وقطع المعونات، وإخراج ملفات حقوق الإنسان والفساد، والسندان غضب الشارع العربى وثورته. وتراهن الأنظمة على الولايات المتحدة

الأمريكية ضد الشارع العربى. وهو نفس برهان برفيز مشرف، حاكم باكستان الذى آثر أن يخسر الشارع ويكسب ود الولايات المتحدة لضرب أفغانستان، والقفز فوق آسيا، وإقامة القواعد فى قازقستان، وتهديد الصين وماليزيا وروسيا، والوقوف أمام الاقتصاد اليابانى والكورى، والاستيلاء على السوق الأسيوى لمنتجات هونج كونج وتايوان وسنغافورة، والوقوف على حافة نفط بحر قزوين، وخوفا من حصار باكستان وقدرتها النووية بين الهند شرقا وإسرائيل غربا. قد يكون الرهان على الولايات المتحدة كسبا للنظام على الأمد القصير، ولكنه خسارة له على الأمد الطويل، إذا ما تحولت حركة الشارع إلى ثورة شعبية بمساندة بعض عناصر وطنية فى القوات المسلحة.

والآن، ما دور المثقف؟ يشعر البعض بأن المدخل الأيديولوجى للواقع العربى المعاصر قد تجاوزه الاجتياح الصهيونى لما تبقى من فلسطين. فقد تم توحيد المقاومة فى اللجنة العليا للمقاومة الفلسطينية. ولم يعد تعدد الأطر النظرية بين قوميين وإسلاميين وليبراليين وماركسيين بذى دلالة. ومنذ معركة الكرامة فى 1967 حتى انتفاضة الاستقلال فى سبتمبر 2000 يصدق علينا ما أنشده نزار:

الفدائى وحده يكتب الشعر وكل الذى كتبنا هراء

وماذا يغنى النظر عن العمل؟ وفيم الخلاف الأيديولوجى بين فرقاء النضال والخطر على الجميع، وأفعال المقاومة تتجاوز الاختيارات الأيديولوجية؟ وبدلاً من الحروب المعلنة وغير المعلنة بين المثقفين، والتخوين والتكفير المتبادلين يقوم الشهيد بالتوحيد بين الفكر والواقع، بين الحياة والخلود، بين السماء والأرض. الشهيد هو فعل الشهادة وليس منطلقه النظرى الإسلامى أو القومى أو الماركسى أو الوطنى الليبرالى. الفعل يوحد النظريات، والنظريات أفعال وهمية.

إن التمترس حول البحث النظرى، والتخندق فى التحليل الإبستمولوجى، والتستر بالغطاء المعرفى إنما هو نقص فى الالتزام، والأخذ بالأسهل والأحوط. فالتحليل المعرفى يتم فى المكتبات وعلى المكاتب فى حين أن النضال الوطنى يكون فى الطرقات ومع الناس. الإبستمولوجيا تنتشر فى

دور النشر، وتؤدى إلى الجوائز العلمية فى الخليج. فى حين أن الفعل يؤدى إلى السجون والمعتقلات، والاغتيالات والتصفيات. وهو نفس مصير الفقهاء القدماء. فريق أخذ الصرة والحلة والجاه والمنصب والصدارة والرياسة، فقهاء السلطان، وفريق سُجن وعُذب وصُلب وذبح، فقهاء الأمة والناس.

بل إن البحث العلمى والتحليل المعرفى نفسه يجف ويموت دون الممارسة الفعلية. فالتجربة الاجتماعية للفيلسوف مثل المختبر والمعمل للعالم. لذلك يسمون فريق البحث العلمى فى الجزائر "المخبر" نقلاً عن الفرنسيين Laboratoire، مخبر علم الاجتماع، مخبر الفلسفة. وقد أكد معظم الفلاسفة وليس التجريبيين وحدهم على أهمية الخبرة بصرف النظر عن مستواها ومدى اتساعها، بين الخبرة الحسية أو الخبرة الحياتية، الخبرة الفردية والخبرة الجماعية. ويتبادل اللفظان الخبرة والتجربة، الخبرة البشرية والتجربة العلمية وأحيانا يتمايزان. وكثيراً ما يسأل الأساتذة الطلاب أين الباب الأول فى رسائلهم عن حياة الفيلسوف وعصره والظروف الاجتماعية والسياسية التى نشأ فيها؟ فالفيلسوف ابن عصره. وفى نفس الوقت يحلو للبعض منهم التشدق بمصطلح "المثقف العضوى" لجرامشى، معتبرين أنفسهم نموذجه حتى يلحق بثقافة العصر.

إن الفلسفة رسالة وليست مهنة، قضية وليست حرفة[1]. وأستاذ الفلسفة هو الأمين عليها. صحيح أن مهمته هى التعليم ولكن ليس الصنعة بل ممارسة أفعال الفكر وتحليل الواقع، لا فرق بين المدرج والشارع، بين عالم الأذهان وعالم الأعيان. ليس من المعقول أن يعطى درس فى حقوق الإنسان فى الأروقة وتنتهك حقوق الإنسان فى المجتمع دون ربط بين هذا وذاك، ودون قياس الفارق بين النظرية والواقع، بين ما ينبغى أن يكون وما هو كائن. ليس من المعقول أن يعطى درس فى منطق أرسطو وأشكال القضايا، وضروب القياس المنتج وغير المنتج، والشارع العربى ينتفض، والأراضى تُحتل، والشهداء يتساقطون، والطالب موزع بين عقله فى الجامعة، وقلبه فى الشارع. إنه معلم الصنعة وليس شاهد

(1) انظر دراستنا: الفلسفة رسالة وليست مهنة، ندوة القيم والأعراف الجامعية، جامعة القاهرة، يناير 2000.

العصر الذى قد يكون شهيداً فيه. فى هذه الحالة يكون العلم تعويضاً عن الفعل، والصنعة غطاء لغياب الرسالة، والتخصص الدقيق بديلاً عن العمل العام، وإيثار الأسهل على الأصعب. والجنة محفوفة بالمخاطر.

إن الأستاذ يحمل هموم الفكر والوطن على حد سواء، يقوم بالعلم وبالمواطنة دون تمييز حتى يؤثر فى الطالب، فيكون الطالب معه بالعقل والقلب، بدلاً من أن يكون عقله داخل المدرج وقلبه فى الشارع والطريق، وحتى يحترم الطالب الأستاذ، ويعلم أنه ليس موظفاً فى الجامعة بل صاحب موقف، وحتى لا يعتبر الأستاذ الطالب مشاغباً سياسياً يبلغ عنه لسلطات الأمن، يعكر عليه صفو العلم، ويمنع الطلاب من التحصيل.

إننا ليس الجيل الذى سيخرج منه الفلاسفة. فمازلنا جيل عصر النهضة الأول بعد أن كبا بعد مائتى عام ليعود فجر نهضة عربية جديد. ما زال الواقع لدينا مغطى بالأنساق المعرفية والقيمية القديمة. وما زالت الأسئلة الثلاثة التى جعلها كانط شرط التفلسف: ماذا يجب علىّ أن أعرف؟ ماذا يجب علىّ أن أفعل؟ ماذا يجب علىّ أن آمل؟ ما زالت إجاباتها القديمة مطروحة. ومن ثم فلا سؤال. أعرف عن طريق الوحى، وقيمى من أحكام الشريعة، وأملى فى الفوز فى الآخرة، نيل النعيم وتجنب العذاب. والأسئلة الكبرى فى كل فلسفة من أين آتى؟ ومن أين أتى العالم؟ وإلى أين أنتهى؟ الإجابة عنها معروفة. اللّه موجود، والعالم مخلوق، والنفس خالدة، تنتظر الثواب والعقاب طبقاً للأعمال. فما دامت الإجابة موجودة فلا سؤال. وما دام لا سؤال فلا تفلسف. فأى سؤال متنطع: هل لدينا فلاسفة؟ سؤال خارج عن سياقه التاريخى. فالفلسفة تبدأ بالسؤال. ويوضع السؤال عندما تغيب الإجابة. والإجابات عندنا جاهزة تعطينا وئاما معرفيا بيننا وبين الواقع.

لقد نشأت الفلسفة فى الغرب فى بدايات العصور الحديثة بعد أن تكسر الغطاء النظرى بين القديم والجديد، وثبت أن أنساق أرسطو وبطليموس والكنيسة لا تتفق مع العقل والطبيعة والإنسان والمجتمع. فبدا الواقع عاريا من أى غطاء نظرى. وبدأت التساؤلات والإجابات البديلة. فنشأت الأنساق

الفلسفية والتيارات الفكرية للإجابة على هذه التساؤلات. الفيلسوف بهذا المعنى هو صاحب النسق الفلسفى. وليس لدينا فيلسوف بهذا المعنى، صاحب النسق، واضع نظرية فى المعرفة، ونظرية فى الوجود، ونظرية فى القيم.

إنما الفيلسوف لدينا هو المفكر والناقد، وربما المثقف والأديب، صاحب الموقف النقدى من الموروث القديم الذى يحاول التخلص من سيطرته، والتحرر من سلطانه، ورفضه كسلطة للتقليد من أجل إفساح المجال للاجتهاد و"الرد على من أخلد إلى الأرض، وجهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض" كما قال السيوطى.

الفيلسوف هو الذى يعيد بناء التراث القديم بحيث يكون أصلح لروح العصر. ويعيد الاختيار بين البدائل، واختيار بديل أنفع الناس. فما زالت الاختيارات عندنا منذ القرن الخامس الهجرى، عصر الغزالى، هى السائدة بالرغم من مرور ألف عام عليها. فيها سقطت دول وقامت أخرى، وانتهت حضارات ونهضت أخرى. وتم اكتشاف نصف العالم، أمريكا وأفريقيا. وسقطت غرناطة، وفتحت القسطنطينية. وسقطت الخلافة، واحتلت الأمصار، وتحررت البلاد ثم عاد إليها الاستعمار من جديد فى أشكال جديدة للهيمنة.

الفيلسوف هو الذى يحاول أن ينقل حضارته من مرحلة إلى مرحلة، من الإصلاح إلى النهضة، ومن الهيمنة إلى التحرر، ومن التبعية إلى الاستقلال، ومن التجزئة إلى الوحدة، ومن الاحتلال إلى حق تقرير المصير، ومن الظلم الاجتماعى إلى العدالة الاجتماعية، ومن الاغتراب إلى إثبات الهوية، ومن السلبية واللامبالاة والفتور إلى الالتزام والفعل وأخذ المواقف.الفيلسوف هو ابن عصره، والقادر على تشخيص طبيعة المرحلة التى تمر بها حضارته، والتأثير فى أكبر قدر ممكن من الناس، ومخاطبة الخاصة بالقول البرهانى، والمثقفين بالقول الجدلى، والعامة بالقول الخطابى[1].

والفيلسوف ثانياً هو الذى يتمثل الوافد بعد نقله والتعليق عليه

(1) انظر دراستنا: التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة 1980.

وشرحه وتلخيصه وعرضه والتأليف فى موضوعاته ثم الإبداع فيه. ولما كان الوافد الحديث هو الوافد الغربى وليس الوافد اليونانى، فكل ناقل له من أجل تمثله وليس من أجل شيوعه وإذاعته والترويج له ولاء للثقافة الغربية، وكل من يشرحه ويلخصه نقلا له من حضارة إلى حضارة، ومن وظيفة إلى وظيفة، وكل من يعرضه ويؤلف فيه ويبدع فى موضوعاته ولا يكتفى بحمله فهو فيلسوف.

ليس مهمة الفيلسوف الذى يتعامل مع الوافد الغربى نقله وانتزاعه غرسه من بيئة لزرعها فى بيئة أخرى، وبناء مذاهبه ومدارسه فى بيئة غير مواتية. فقد حاول رواد النهضة ذلك ببناء صروح ليبرالية أو قومية أو اشتراكية أو حتى إسلامية مستنيرة فوق أرضية تراثية محافظة موروثة ترفض الجسم الغريب. فسرعان ما انهارت، وظهر الموروث القديم حاملاً لحركات إسلامية محافظة تتهم التنوير بالتغريب. وكلما تفاقمت الأزمات، وتعاظمت التحديات، واتسعت رقعة احتلال الأراضى، وزاد البون بين الأغنياء والفقراء، وازداد التشرذم والتفتت والتجزئة، واشتد التغريب ظهرت الحركات الإسلامية باعتبارها المخلص من أزمات الأيديولوجيات العلمانية للتحديث، الليبرالية والقومية والماركسية.

فكل من يأخذ موقفاً نقدياً من الغرب، متميزاً عنه دون الانبهار به والذوبان فيه والترويج لبضاعته، محولا الغرب من كونه مصدرا للعلم كى يصبح موضوعا للعلم فهو الفيلسوف كما كان الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد فلاسفة بالنسبة للوافد اليونانى، ومسكويه بالنسبة للوافد الفارسى، والبيرونى بالنسبة للوافد الهندى.

والفيلسوف ثالثا هو الذى ينظر للواقع تنظيراً مباشراً ويحوله إلى نص. ولا يكتفى بتأويل النصوص القديمة أو الحديثة وإلا كان عبداً للنصوص. لا يستطيع أن يرى العالم إلا إذا وضع على عينيه نظارة نص يرى الواقع من خلالها. فلو كانت النظارة بيضاء ظهر العالم أبيضا، ولو كانت سوداء ظهر العالم أسودا، ولو كانت حمراء ظهر العالم أحمرا. والأصدق فينا ما قاله محمود درويش:

واحتمـــــــى أبـــــــوك بالنـــــــصوص

فـــــــــــدخل اللـــــــــــصوص

لذلك اتهمنا بأننا حضارة نص، وفكر كتاب مثل أهل الكتاب. ويزهو الغرب علينا بأنه وحده صاحب حضارة الفعل، وحجة العقل بعد أن قضى على حجة النص. ونحن مازلنا نعتمد على حجة النص. فالنص أساس العقل كما ورثنا عن الأشعرية القديمة. وعرفنا بالتأويل والاشتباه، والظاهر والباطن والفكر، والازدواجية والنفاق فى السلوك، نظهر غير ما نبطن، ونبطن غير ما نظهر، نقول ما لا نعتقد، ونعتقد ما لا نقول. وهو ما لاحظه القرآن من قبل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾. كما نقد القرآن (**الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا**).

الفيلسوف هو الذى يعطينا نظرية فى تحرير الأرض المحتلة ويقدم لنا ثقافة المقاومة، ولاهوت الأرض، وعقائد التحرير. وهو الذى يعطينا نظرية فى حرية المواطن، ويبحث عن الجذور التاريخية لأزمة الحرية والديموقراطية فى وجداننا العربى المعاصر، وكما حاول الكواكبى فى "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد". وهو الذى يصوغ نظرية ويضع آلية للعدالة الاجتماعية. فأغنى أغنياء العالم منا. وأفقر فقراء العالم فينا. وهو الذى يضع عقيدة للوحدة لحماية الأمة من التشرذم والتجزئة كما فعل الرومانسيون الألمان، فشته وهيجل وشلنج تدعيماً للوحدة الألمانية. وهو الذى يدافع عن الهوية ويضع قانوناً للذاتية كما حاول إقبال ضد التغريب، والتميع فى الغرب، والاغتراب فى الآخر. وهو الذى يعطى نظرية فى التنمية المستقلة ضد التبعية والمعونات الأجنبية والاستيراد وقيم الاستهلاك. وهو القادر على تجنيد الجماهير وحشد الناس، ونقلهم من اللامبالاة إلى الالتزام، ومن الفتور إلى الحماس كما حاول الكواكبى من قبل فى "أم القرى".

الفيلسوف هو صاحب الموقف الحضارى والذى يعى المرحلة التاريخية التى تعيشها حضارته، وينقلها من مرحلة إلى أخرى. الفيلسوف ابن عصره، وابن وقته، وابن زمنه، وابن مجتمعه. ليس هو الذى يعيش خارج الزمان، يعلِّم أرسطو كما يعلِّم حرفة، ويلقِّن المنطق كما يفعل الشيخ مع المريد والذى ما زال يعيش فى العصر العثمانى.

ليس الفيلسوف هو مؤرخ الفلسفة الذى يحمل بضاعة يبيعها لمن يشاء

لأبناء وطنه ولدور النشر. الفيلسوف هو صاحب الوعى الفلسفى. فالفلسفة ليست معلومات فلسفية ينقلها معلم إلى تلميذ بل هو الذى يمارس فعل التفلسف. وفى فعل التفلسف تتوحد الذات والموضوع. فلا ذات بلا موضوع، ولا أستاذ بلا قضية. ولا موضوع بلا ذات، ولا وطن بلا مواطن.

إن الأستاذ المهنى، صاحب الصنعة هو وليد ظروف العصر، البحث عن الإعارات فى دول النفط التى تريد الصنعة لا الرسالة، والحرفة دون القضية أو التكسب بالعلم فى الداخل عن طريق الكتب الجامعية إذا ما ندرت الإعارات. كما أنه وليد الخوف فى الداخل من بطش الحكام.

كان معظم الفلاسفة فى التاريخ أصحاب قضايا وحملة رسالات كالأنبياء. يصدق عليهم "العلماء ورثة الأنبياء". كان سقراط صاحب قضية، تنوير الناس. وأفلاطون حامل رسالة، تربية المجتمع الأثينى وتكوين المدينة الفاضلة. وأوغسطين صاحب موقف، الدفاع عن المسيحية ضد الشكاك والمانويين والوثنيين فى الخارج والفرق الضالة أنصار دوناتوس وآريوس فى الداخل. ودافع سيجر البرابنتى باسم الرشدية اللاتينية عن العقل والطبيعة، عن الفكر الحر والعلم الدقيق. وأراد ديكارت وبيكون أن يؤسسا المعرفة الجديدة. كما أراد كانط أن يبين إمكانيات العقل، وهيجل أن يكشف عن قوانين الجدل، وفشته أن يؤسس نظرية فى العلم باعتبارها حرية، وماركس أن يغير العالم، وهوسرل أن يكمل المثالية الترنسندنتالية منذ البداية فى "الكوجيتو" حتى النهاية فى "الكوجيتاتوم"، منذ "الأنا أفكر" حتى "الأنا موضوع التفكير".

وفى تراثنا القديم، كان المتكلمون والفلاسفة والصوفية والأصوليون أصحاب قضايا. كانت الفرق الكلامية أحزاباً سياسية تؤول العقائد الدينية إلى أيديولوجيات للسلطة القائمة أو للمعارضة السياسية. وأراد الحكماء تمثل الوافد داخل الموروث فى جدل ثقافى بين الحضارات. وكان الصوفية يريدون الاستمرار فى المقاومة، مقاومة النفس، إذا ما استعصت مقاومة الظلم والطغيان فى العالم الخارجى. وأراد الأصوليون وضع مناهج للتشريع ومنطق للاستدلال فى ظروف متغيرة وعصور متوالية.

الثقافة رؤية، والفكر موقف، والعلم التزام.